

مجلده آخر السنة في ثمانمائة صفحة جيدة الطبع والورق وكان في السنتين السالفتين
ستمائة واثنين وسبعين صفحة واستكثرنا من المواد التي نقبس منها أو نعرب عنها من
مجلات وموسوعات أفرنجية وأسفار مكتبة عربية مع إبقاء قيمة الاشتراك بحالها. والله
نسأل أن يحقق آمالنا لنقوم ببعض الواجب وهو يهدي السبيل.

الأدب الصغير

لابن المقفع

عني بنشره الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري

توطئة الناشر

من أعظم ما تدعو الحاجة إليه علم تهذيب الأخلاق لتوقف نجاح الأمم عليه وهو فن
ذو أفنان تحتاج إليه الأفراد على اختلاف طبقاتها. ومع قلة ما انتشر من كتبه ففي
جنحها من عدم التنقيح وانسجام العبارات ما يصد كثيراً من الطالبين عن الإقبال
عليها. ومن ثم كثر بحثنا عن كتب تفي بهذا المطلب مع رشاقة مبانيها لتكون الفائدة
مزدوجة وهو أقصى آمال الذين يسعون في إحياء اللغة العربية وإعادة لها إلى ما كانت
عليه في عهدها الأول.

ولما ذهب إلى مدينة بعلبك سنة 1233 رأيت عند بعض الأفاضل الواردين عليها
مجموعاً استعاره من بعض أعيانها فرأيت فيه الصالحة المشودة وهي رسالة الأدب
الصغير لعبد الله بن المقفع الكاتب الذي يضرب ببلاغته المثل فكتبها بخطي في نحو يوم
وأرجو أن يسر لنشرها من عرف بحسن الطبع ليعم بها النفع والله الموفق.

وهذا بيان الرسائل التي في المجلد المذكور:

- 1 — كتاب عجائب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في نحو ثلاث كراسات يشتمل على ما نقل عنه من بدائع الأحكام.
- 2 — ذكر الخلاف وعنوان المعارف تأليف صاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد أوله الحمد لله الواحد العدل وصلى الله على النبي وخيرة الأهل وقد أسعفتك بالمجلد الذي التمسته في نسب النبي عليه السلام وبنيد وبناته وأعمامه وعبياته وجمل من غزواته وسائر ما يتصل بذلك وهو اثنتا عشرة ورقة وفي آخره. وكتب في رجب سنة عشرين وأربعمائة.
- 3 — رسالة إلى أحمد بن أبي داود في فضل العلم وهي 3 أوراق وفي آخرها: وكتب في شهر ربيع الأول سنة عشرين وأربعمائة.
- 4 — ويتنوها كتاب الأدب الصغير الذي نقلناه وهو في الصفحة اليسرى من آخر ورقة من الرسالة السابقة بخط كاتب واحد فتكون كتابتها في التاريخ المذكور ولم يذكر في آخرها تاريخ.
- 5 — ويتنوه كتاب ذخائر الحكمة تأليف أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي وهو في نحو ثلاث وعشرين ورقة.
- 6 — مختصر من كتاب جاوريدان خرد في حكم الفرس والهند والروم والعرب تأليف أحمد بن مسكويه وهو أكثر من كراس.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فإن لكل مخلوق حاجة ولكل حاجة غاية ولكل غاية سبيلاً والله وقت للأمر
أقدارها وهياً إلى الغايات سببها وسبب الحاجات ببلاغها فغاية الناس وحاجاتهم صلاح
المعاش والمعاد. والسبيل إلى دركها العقل الصحيح. ومارة صحة العقل اختيار الأمور
بالبصر. وتنفيذ البصر بالعزم. وللعقول سحبات وغرائز تقبل الأدب وبالأدب تسي
العقول وتزكو فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تلحح يسهها وتظهر
قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها وغنائها إلا بمعونة الماء الذي يغور
إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة
فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغزها في القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة
عندها حتى يعتنقها الأدب الذي هو غناؤها وحياتها ولقاحها. وجلُّ الأدب بالمنطق
وكل المنطق بالتعلم ليس حرف من حروف معجته ولا اسم من أنواع أسمائه غلا وهو
مروي متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب وذلك دليل على أن الناس لم
يتدعوا أصولها ولم يأثم عتسها إلا من قبل العليم الحكيم. فإذا خرج الناس من أن
يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً فيعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم
وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب قصص وجد يافوتاً وزبرجداً
ومرجاناً فنظمه قلانداً وسموياً وأكليل ووضع كل قص في موضعه وجمع إلى كل لون
شبه مما يزيده بذلك حسناً فسي بذلك صائغاً رفيقاً. وكصاغه الذهب والفضة
صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحني والآنية. وكالحل وجدت ثمرات أخرجها الله
طيبة وسنكت سبلاً جعلها الله ذلاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها

مذكوراً به أمرها وصنعتها فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجب به إعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتباها كننا وصفناه.
ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه فلا يرين عليه في ذلك ضؤولة فإنه في أعين على حفظ قول المصيين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء فلا عليه أن لا يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه في رأيه ولا بغائضه من حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه وإنما حياة العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست: الإيثار بالخبية، والمبالغة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً.

أما الخبة فإنما ينبغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة حين يؤثر بحسبه فلا يكون شيء أمراً ولا أحمى عنده منه. وأما الطلب فإن الناس لا يغيثهم حبهم ما يحبون وهوامهم ما يهوون عن طلبه وابتغائه ولا يدرك لهم بغيهم نفاستها في أنفسهم دون الجد والعمل. وأما التثبت والتخير فإن الطلب لا ينفع إلا معه وبه فكم من طالب رشد وجاهد وألغى معاً فاصطفى منها ألد منه هرب وألغى الذي سعى فإذا كان الطالب يحوي غير ما يريد وهو لا يشك بالظفر فيما أحقه بشدة التبيين وحسن الابتغاء. وأما اعتقاد الشيء بعد استبانته فهو ما يطلب من إحراز الفضل بعد معرفته. وأما الحفظ والتعهد فهو تمام الدرك لأن الإنسان موكل به النسيان والغفلة فلا بد له إذا اجتبي صواب قول أو فعل من أن يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجة شديدة فإننا لم نوضع في الدنيا موضع غناء وحقص ولكن موضع فاقة وكد ولسنا إلى ما يحسن

بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يشبع عقولنا من الأدب الذي به تفاوت
العقول وليس غذاء الطعام بأسرع من نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل
ولسنا بالكدر في طلب المتاع الذي ينتسب به دفع الضرر والعينة بأحق منا بالكدر في
طلب العلم الذي ينتسب به صلاح الدين والدنيا.

وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس اخفوظ حروفاً فيها عون على عبارة
القبوب وصقلها وتجنبة أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد
الأمر ومكارم الأخلاق إن شاء الله.

الواصفون أكثر من العارفين. والعارفون أكثر من الفاعلين، فينظر امرؤ أين يضع
نفسه فإنه لكل امرئ لم تدخل عليه آفة نصيباً من النيب يعيش به لا يحب أن له به من
الدنيا ثمناً. وليس كل ذي نصيب من النيب بمستوجب أن يسنى في ذوي النيب ولا
أن يوصف بصفاتهم. فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلاً فليأخذ له
عتاده وليعد له طول

أيامه وليؤثره على أهوائه فإنه قد رام أمراً جسيماً لا يصحح على الغفلة ولا يدرك
بالمعجزة ولا يصير عليه الأثرة وليس كسائر أمور الدنيا وسنطافها ومالها وزينتها التي
قد يدرك منها المتوازي ما يفوت المتأخر ويصيب منها العاجز ما يخطئ الحازم.

وليعلم أن على العامل أموراً إذا ضيعها حكم عليه بمقارنته الجهال. فعلى العامل أن
يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذي وأن هذه منزلة
اتفق عليها الحسنى والأكياس ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال من جماع الصواب
وجماع الخطأ وعندهن تفرقت العناء والجهال والحزمة والعجزة.

الباب الأول في ذلك أن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يحب وأحقه بالانتقاء إن كان مما يكره أطول وأدوم وأبقى فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى وفضل الرأي الجامع العام الذي تصح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستع به قليلاً ثم يصحح وفضل الأكلات على الأكله والساعات على الساعة.

والباب الثاني هو أن ينظر فيما يؤثر من ذلك فيضع الرجاء والخوف في موضع فلهذا يجعل انتقائه لغير المخوف ولا رجاءه في غير المدرك فيترك الذات طلباً لأجلها ويحتمل قريب الأذى توقيهاً لبعيده فإذا صار إلى العقوبة بدا له أن فراره كان تورطاً وأن طلبه كان تكباً.

والباب الثالث من ذلك هو تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة بفضل الذي هو أدوم وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانه محروم. وعلى العاقل محاسبة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها والإبانة لها والتكامل بها.

أما أخاسية فيحاسبها بما لها فإنه لا مال لها إلا أيامها المحدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق فيتنبه لهذه أخاسية عند الحول وإذا حال والشهر إذا انقضى واليوم إذا ولى فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء وجد وتذكير وتبكيك للنفسي وتذليل لها حتى تعترف وتدع.

وأما الخصومة فإن من طباع النفس الأمانة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى
والأمانى فيما بقي فيرد عليها معاذيرها وعذلتها وشبهاتها.

وأما القضاء فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة فبأنها فاضحة مردية موبقة
ولحسنه بأنها زائنة منجية مريحة. وأما الإبانة والتنكيل فإنه يسر نفسه بتذكر تلك
الحسنات ويرجو عواقبها وتأمين فضلها ويعاقب نفسه بالتذكر للنسيات والبشع بها
والاقتشعار منها والحزن لها.

فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذاً وأقنهم عنها فترة ولى العاقل أن يذكر
الموت كل يوم وليلة مراراً ذكرًا يباشر القلوب ويقذع الطمّاح فإن كثرة ذكر الموت
عصنة من الأشر وأماناً يأذن الله من الملح.

وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي
الأدب فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ثم يكثر عرضه على نفسه ويكنفها
صلاحه ويوظف ذلك عليها توظيفاً في إصلاح الخلة أو الخلتين والخلال في اليوم أو
الجمعة أو الشهر فكنها أصح شيئاً محاد وكنها نظر إلى ثابت اكتأب.

وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحفظها ويحصىها ويصنع غي توظيفها على نفسه
وتعهدها بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوي.

وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع إلا ذا فضل في
الدين والعلم والأخلاق فيأخذ عنه أو موافقاً له على صلاح ذلك فيزيد ما عنده وإن
لم يكن له عليه فضل وإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنسى إلا بالموافقين
والمهذبين والمؤيدين وليس لذي الفضل قريب ولا حميم هو أقرب إليه وأحب ممن وافقه

عنى الحصال فزاده وثبته ولذلك زعم بعض الأولين أن صحة بنيد نشأ مع العناء أحب إليهم من صحة ليب نشأ مع الجهال.

وعنى العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى وأن يتزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ويتزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ولا يبنغن سكرًا ولا طغيانًا فإن مع السكر النسيان ومع الطغيان التهاون ومن نسي وقهاون خسر.

وعنى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجريهم عليها حتى يصيروا حرساً على سمعه وبصره ورأيه فيستقيم إلى ذلك ويريح له قلبه ويعنم أهم لا يغفنون عنه إذا هو غفل عن نفسه.

وعنى العاقل ما لم يكن مغنوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يقضي فيها إلى أخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لداها مما يحل ويجمل فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر وإن استجنام القنوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل لغة وعنى العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث حصال تزود لمعاد أو مرمية المعاش أو لذة في غير محرم.

وعنى العاقل أن يجعل الناس طبقتين مختلفتين متباينتين وينس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة ينس لهم لباس انقباض والحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة وطبقة من الخاصة يخنع عندهم لباس التشدد وينس لباس الأنسة والنفط والبدلة والمفاوضة

ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من ألف كنهم ذو فضل في الرأي وثقي في المودة وأمانة في السر ووفاء بالإخاء.

وعنى العاقل أن لا يستصغر شيئاً في الخطأ والزلل في العنم والإغفال في الأمور فإن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً فإذا الصغير كبير وإنما هي ثم يشنها العجز والتضييع فإذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق ولم تر شيئاً قط قد أتى إلا من قبل الصغير المهاون به.

قد رأينا المنك يؤتى من قبل العدو اختقر ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل به ورأينا الأهمار تبتق من الجدول الذي يستخف به وأقل الأمور احتمالاً للتضياع المنك لأنه ليس منه شيء يضيع وإن كان صغيراً وإلا اتصل بآخر يكون عظيماً.

وعنى العاقل أن يحجن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين، وعنى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تسويق الرأي وإسعاف الهوى فيخالف ذلك وينتسب أن لا يزال هواه مسوفاً ورأيه مسعفاً.

وعنى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره.

من نصب نفسه للناس إماماً في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقومعها في السيرة والطعنة والرأي والنقطة والأخذان فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بنسائه فإنه كما أن كلام الحكمة يوق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم.

ولاية الناس بلاء عظيم.

وعنى الوالى أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت:
الاجتهاد في التخير — والمبالغة في التقدمات والتعهد الشديدات والجزاء العتيد.

أما التخير للعمال والوزراء فإنه نظام الأمر ووضع مؤونة البعيد المنتشر فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار ألفاً لأنه من كان من العمال خياراً فسيختار كما اختير ولعل عمل العامل وعمل عماله يبنغون عدداً كثيراً فمن تبين التخير فقد أخذ بسبب وثيق ومن أسس أمره على غير ذلك لم تجد لبيانه قواماً. وأما التقديم والتوكيل فإنه ليس كل ذي لب وذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال ولو كان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً أن يكل ذلك إلى عمده دون توقيفه عليه وتبيينه له والاحتجاج به عليه. وأما التعهد فإن الوالى إذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً وأن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصداً حريزاً وأما الجزاء فإنه تثبت أحسن والراحة من المسيء.

لا يستطيع السلطان إلا بالوزراء والأعوان ولا تنفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة ولا المودة إلا مع الرأي والعفاف وأعمال السلطان كثيرة وقلما تستجمع الخصال المحبودة عند أحد وإنما الوجد في ذلك والسييل إليه الذي يستقيم به العمل أن يكون صاحب السلطان عالماً بأمور من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل من الرأي والغناء وما فيه من العيوب فإذا استقر ذلك عنده عن عنده وعلم من يأتمن وجهه لكل عمل من قد عرف أن عنده من الرأي والنجدة والأمانة ما يحتاج إليه فيه وإن ما فيه من العيوب لا يضر بذلك ويتحفظ من أن يوجه أحداً وجهاً لا يحتاج فيه إلى مروءة إن كانت عنده ولا يأتمن عيوبه وما يكره منه.

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عما لهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيء.

ثم عندهم بعد ذلك أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقرؤا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز فإنهم إن تركوا ذلك قنّواون الحسن واجترأ المسيء وفسد الأمر وضاع العمل. اقتصاد السعي أبقي للجنان ومن بعد الهمة يكون النصب ومن سأل فوق قدرة استحق الحرمان.

سوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحاً وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطنب شرهاً وعار الفقر أهون من عار الغنى والحاجة مع الخبة خير من الغنى مع البغضة. والدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك. إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للنطق وأبين في المعنى وأتق للنسب وأوسع لشعوب الحديث.

أشد الفاقة عدم العقل وأشد الوحدة وحدة النجوج ولا مال أفضل من العقل ولا أنس أنس من الاستشارة مما يعتبر به صلاح الصالح وحسن نظره للناس أن يكون إذا استعجب المذنب مستوراً لا يشيع وإذا استشير سمحاً بالنصيحة مجتهداً بالرأي وإذا استشار مطرحاً للحياء ومعتزلاً بالحق.

القسم الذي يقسم للناس ويمتنعون به نحوان فمنه حارس ومنه محروس فالحارس العقل واخر ومن المال.

والعقل بإذن الله هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ويعرف النكرة ويشعر
المكسبة ويطيب الشرة ويوجه السوقة عند السلطان ويستول للسلطان نصيحة
السوقة ويكسب الصديق وينفي العدو.

كلام النيب وإن كان نزاراً أدب عظيم ومقارفة المآثم وإن كان محتقراً مصيبة جنيته
ولقاء الأخوان وإن كان يسيراً غنم حسن.

قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً أما الصالح فمدعو وأما الطالح
فمقتحم وأما ذو الأدب فطالب وما من لا أدب له فمحتبس وأما القوي فمدافع وأما
الضعيف فمدفوع وأما الحسن فمستثيب وأما المسيء فمستجير فهو مجمع البر والفاجر
والعالم والجاهل والشريف والوضيع.

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون في أمورهم فقائلهم باغ — وسامعهم عياب —
وسائلهم متعنت — ومجيبهم مكثف — وواعظهم فغير محقق لقوله بالفعل —
وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف — والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة
— وذو الصدق غير محترس من حديث الكذبة — وذو الدين غير متورع عن تفريط
الفجرة — والعازم منها غير تارك لتوقع الدوائر — يتناقضون البنى — وترفون الدول
— ويتعاطون القبيح — ويتعابنون بالغمز — ويرعون في الرخاء بالتحاسد — وفي
الشدة بالتجاذب.

ثم قد انتزعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له فأصبحت الأعمال أعمالهم
والدنيا دنيا فغيرهم وأخذ متعهم من لم يحمدهم وخرجوا إلى من لا يعذرهم فأصبحنا

خلفاً من بعدهم نتوقع مثل الذي نزل بهم فتحن إذا تدبرنا أمورهم أحقأ أن ننتظر ما نغبطهم به فتبعه وما نخاف عليهم منه فنجتبه.

كان يقال أن الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتلي بثقله وينهى عن الشيء ويبتلي بشهوته فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتيت ولا تترك من الشر إلا ما كرهت فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمئت فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه إليك وفيما تكرهه من الشر فيحببه إليك. ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستقل منه وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما تحب منه.

للدنيا زخرف يغيب الجوارح ما لم تغلبه الأبواب والحكيم من لم يعض عليه طرفه ولم يشغل به قلبه أطلع من أدناه فيما وراءه وذكر في بدنه لواحق شره فأكل موه وشرب كدره ليحولني له ويصفو في طول من إقامة العيش الذي بقي ويدوم غير عائف للرشد إن لم يلقه برضاه ولم يأت من طريق هواه.

ولا تألف المستوحم ولا تقم على غير الثقة. فقد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمته عليهم من السور ما لو أن أحسبهم حظاً وأقنهم منه نصيباً وأضعفهم عنياً وأعجزهم عبلاً وأعياهم لساناً بلغ من الشكر والثناء عليه بما خلص إليه من فضله ووصل إليه من نعمته ما بلغ له منه أعظمهم حظاً وأوفرهم نصيباً وأفضلهم عنياً وأقواهم عبلاً وأبسطهم لساناً لكان عما استوجب الله عليه مقصراً وعن بنوع غاية الشكر بعيداً ومن أخذ بحظه من شكر الله وحمده ومعرفة نعمته والثناء عليه

والتسجيد له فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله والقربة عنده والوسيلة إليه والمزيد
فيما شكره عليه خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

أفضل ما يعلم بع علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك
ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكيمته
والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه في المعاد إليه وأن يتبين الذي لهم من الأخذ بذلك
والذي عليهم في تركه وأن يورث ذلك أهله ومعارفه لينحقه أجره بعد الموت.

الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه وأعظمها منفعة وأحمدها في
كل حكمة فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على السنة الجهاد على جهالتهم
بما وعناهم عنهما.

أحق الناس بالسلطان أهل الرأفة وأحقهم بالتدبير العناء وأحقهم بالعلم أحسنهم
تأدياً وأحقهم بالغي أهل الجود وأقربهم من الله أنفذهم في الحق عنماً وأكثهم به
عدلاً وأحكنهم أبعدهم من الشك في الله تعالى وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله وأشدهم
انتفاعاً بعلمه أبعدهم من الأذى وأرضاهم في الناس أفشاهم معروفاً وأقواهم أحسنهم
معوذة وأشجعهم أشدهم على الشيطان وأفدحهم بالحجة أغلبهم للشهوة والحرص
وأخذهم بالرأي أتركهم للنوى وأحقهم بالمودة أشدهم لنفسه حياء وأجودهم أصوبهم
بالعطية موضعاً وأطولهم راحة أحسنهم للأمور احتيلاً وأقلهم دهشاً أرحبهم ذرعاً
وأوسعهم غنى أقنعهم بما أوتي وأخفضهم عيشاً أبعدهم من الإفراط وأظهرهم جمالاً
أظهرهم حصافة.

وآمنهم في الناس أكنهم ناباً ومخنياً.

وأثبتهم شهادة عندهم أنطقهم عنهم.

وأعد لهم فيهم أدومهم مسألة لهم.

وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها.

أفضل ما يورث الآباء الأبناء الثناء الحسن والأدب النافع والأخوان الصالحون.

فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان وأن الرأي يشب بالخصومة فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الدين رأياً فقد صار شارعاً ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له.

قد يشتبه الدين والرأي في أماكن لولا تشبههما لم يحتاجا إلى الفصل.
(لنكتاب بقية).

الخاصة والعامة

قال الراغب: الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الأعمال ما يتبلغ به إلى جنة المأوى دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا والعام إذا اعتبر بأمور الدين فالدين يرضون من المعارف بالتقليدات ومن أكثر الأعمال بما يؤدي إلى منفعة دنيوية وإذا اعتبر بأمور الدنيا فالخاص ما يتخصص بأمور البند مما ينخرم من افتقاده إحدى السياسات المدنية والعام ما لا ينخرم بافتقاده شيء منها. وهم من وجد آخر ثلاثة خاصة وعامة وأوساط والأوساط هم المسنون في كلام العرب بالسوق فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام هو الذي يساس ولا يسوس والوسط هو الذي يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه. ومن وجد آخر ثلاث أضرب أصحاب الشهوات وهمهم الجدة واليسار والأكل والشرب والبعث

وأصحاب الكرامة والرياسة وهم الممدوح واستجلاب الصيت واخذة وأصحاب الحكمة وكل واحد منهم يستعظم من هو من جنسه. قال بعض الحكماء: ما من إنسان إلا وفيه خلق من خلاق بعض الحيوانات وبعض النبات لكون الإنسان مشاركاً لها في الجنسية وإن كان مبيناً لها في النوعية فمن الناس غشوم كالأسد وعائث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وجامع كالنمل ووقح كالذباب وبنيد كالخنزير وألوف كطير الوفاء وصنع كالسرفقة وأنف كالأسد والنسر وغيور كالدينك وهادئ كالحنام ومنهم حسن المنظر والمخير كالأترج ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبنوط ومنهم قبيح المنظر حسن المخير كالجوز والنوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخير كالحنظل والدفنى والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطيب الأشجار ولا يقطع ثمرها ولا يكسر شجرها ولا يؤذي بشراً ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحتمل طعمه ويطيب ريحه وهو في الأشجار كالأترج يطيب حملاً ونوراً وعوداً وورقاً والمنافع الشريفة هو في الحيوانات كالقمل والأرضية وفي الأشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا زل ولا زهر يفسد الثمار ويبس الأشجار وكالشجرة التي قل ورقها وكثر شوكتها وصعب مرتقاها.

هذا ما ذكره الأصفهاني في وصف طبقات الناس وما يرجى منهم من المنافع وما يخشى من مضارهم قاله منذ زهاء ثمانمائة سنة ويقال مثله بعد قرون كما يصح إطلاقه على ألوف من السنين من قبل. ويرى الناظر في هذه الحياة الدنيا من سلطان الأوهام الكثيرة تأثيراً في دفع الناس بعضهم عن بعض ولولا ذلك لاحتل النظام أو كاد. وكان معظم تأثير الأوهام في خلال القرون الوسطى أيام انتشار الإقطاعات وتسقط

الأشراف ورؤساء الديانات في الغرب أما في الشرق — ونريد به البلاد العربية — فإن الأوهام كانت تتسلط على الناس بعد الإسلام بحسب حال الحكومات المتغنية من العقل والجهل والدين والإلحاد ولذلك أتت على العامة أدوار كانوا يعتقدون أن الخاصة من طينة غير طينة البشر فهم أحق بالتقديس فقدسوهم ورفعوهم فوق أقدارهم ولم تكن نفوس الطبقة العالية من التهذيب بحيث تحسن استعمال هذه الامتيازات التي امتازت بها بل استعملتها ذرائع إلى الاستكثار من الثروة من غير حيلة وللتبجح بالباطل بما لم يأمر به شرع إلهي ولا عقل إنساني ولذلك صرت ولا تزال ترى بين الطبقة العليا والدنيا من الفروق ما لا تراه في أكثر الأمم إليهم إلا الهنود والصينيين فإن مسافة الخلف بين طبقات الناس هناك مما يعجب منه أيضاً.

انته أهل الغرب لسر الاجتماع البشري أكثر منا. والغالب أن سلطة الأشراف أو أهل الطبقة العالية بلغت عندهم قبيل نهضتهم مبلغاً لا تطيقه نفس بشرية فكان القيام على نزع تلك السلطة من أول الإصلاح عندهم ثم بقيت الطبقات تتقارب بعضها مع بعض وإلى اليوم لم يبنع هذا التقارب أشده عندهم ولكنه لو قيس بما بين مختلف الطبقات في شرقنا لعد غاية الارتقاء.

إذا تقارب الخاصة من العامة وعرف كل حقه ولم يتعده تستقيم أحوال المجتمع وتقوى دعائمه وتثبت في نفوس أبنائه روح التضامن الحقيقي وإذا بقيت كل طبقة مقتصرة على أهل طبقتها يحدث بين الطبقات سوء التفاهم ما لا يكون منه حضارة ولا غبطة والعامة هم سواد كل أمة وهم القائسون على الزراعة والصنائع المختلفة والأعمال الصعبة والخاصة أفراد قلائل وقومهم بأفكارهم وعقولهم في الأعم الأغلب من أحوالهم.

والعاقل ينبغي له أن يحسن الانتفاع من كل شيء في هذا الوجود فيما الحال بانتفاعه من مخلوق مثله لو عنده بعض الضروريات لكان عنده له ولغيره أتم وأعم.

مضى العهد الذي كان العنم فيه مقصوراً على أهل طبقة خاصة ككهنة قدماء المصريين وأشراف اليونان والرومانيين ورهبان الأديار والصوامع في القرون الوسطى. مضى ذلك الزمن وما نظن يعود مثله على البشر بعد وقد أخذت حضارة الغرب تنفذ أنوارها حتى إلى القفار ويستير بها المتشدن والمتوحش بحسب ما رزق من قوة بصر وبصيرة. طوي ذلك البساط بما عليه جملة ولن يعود إلى سالف حاله بعد أن توفر جمهور كبير من عنناء الغرب يخطبون العامة في مجالسهم بما لا يعلو عن أفكارهم ويعلمونهم في مدارس ليلية أقاموها لتعليم من لم يسعده الحظ بالتعليم وبعد أن أنشؤا جرائد خاصة ووضعوا اخالات والكتب ليلقنوها الأفكار الصحيحة والمعارف اللازمة من أسير الطرق وأخصرها وبعد أن فتحو لهم المعارض والمتاحف ودور التثليل لتكون منهم مقومات العقول على طرف الشمام وبعد كل ما أقاموه لمنفعتهم من أسباب التعليم يستحيل أن يغالط عامتهم في حقائق الأشياء بعد اليوم وقد غولطوا فيها زمناً طويلاً.

قال سيابل: لا غنية للديمقراطية عن خيرة رجال كنا لا يسعها إلا أن تقدر الذكاء والعلم والفضيلة حق قدرها. ولا مشاحة في أن الديمقراطية تأتي على الحواجز التي كانت تحول بين الطبقة العالية وجمهور الأمة فتدكها من أساسها وذلك لأن الخضع يختار كبار الرجال من جمهور أهل البلاد ممن ينشؤون أبداً بين ظهراني عامة الناس ولا يزالون ينشؤون ويتجددون بما يصدر إليهم من حوض القوة والنشاط وأعني بهذا

الحوض العامة. فإذا اعتزل أولئك الرجال واقتصروا على الاجتماع بأبناء طبقتهم محتقرين ما عداها فإنهم يقضون على أنفسهم بالضعف وعلى أمرهم بالفشل. ليس الشعب هو الجمهور بل هو الأمة وهو الحاكم المتحكم. والفكر لا يكون إلا مجردات ونظريات إذا لم يكن له كيان وحقيقة تؤثر في عقول أبناء الأمة وإرادتهم. وعلى الطبقة الخاصة من الناس وهي في الأصل مخرجة بجهلاء الأمة وأهل الوضاعة منهم أن يكون لها اتصال بالشعب وعينها أن تعمل على إقناعه لتنال ثقته تتصل به وتشركه في معرفة الحقيقة السامية التي تخضع لناموسها الإرادات مختارة وعلى مجموع من يتألف من هم المجتمع الديمقراطي أن يشتركوا في الحياة الوطنية. أمـ.

ولقد وقر في نفوس خاصتنا زمناً طويلاً بأن اجتماعهم بالعامة يعد منقصة وسبة لذلك كانوا وأكثر من يتناولون إلى التشبه بهم من أهل الطبقة الوسطى في العقول يشتمون من الاختلاط بغير طبقتهم كأن العلم بزعمهم يفسد إذا ألقى على من ينتفع به أو أنه تذهب بركته ويؤول بهوؤه ورواؤه وقد كان هذا الخلق يقوى في الشرق على عهد ضعف الوازعين الديني والسياسي والتحلال التربيتين البيئية والمدرسية.

وما مجالس الوعظ أيام الحضارة الإسلامية إلا من بركة تلك العقول الكبيرة والتربية الراقية فكنت ترى أمثال الحسن البصري والفخر الرازي وابن الجوزي ومئات غيرهم في المساجد والمنابر يعظون العامة ليعلموهم ما حرموا منه فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم. بدأ ذلك على عهد الخليفة الرابع فكان يأتي بواعظ العامة ويسأله فإن رآه متسكناً من العلم بحيث لا يضل الناس بكلامه أذن له بالوعظ وإلا منع وما كان جنة العلناء يستنكفون من تفهيم العامة كما كانوا يعلنون الخاصة.

وظاهر أن ما كانوا ينقونه على مسامع جمهور الناس من أنواع العلوم لم يكن في صعوبته كالذي ينقونه على خواصهم ولذلك قلنا كان يتأتى العبث بعقول العامة في القرون الستة الأولى للإسلام فقرّبوا من الخير والسلامة من أكثر خاصة العصور المتأخرة ممن جعلوا الدين سلباً إلى الدنيا وقشور العنم للنباهة. ومقادير الخاصة والعامة في كل أمة نسبية في الغالب فقد يكون رجل من طبقة الخواص في أمة فإذا قيس بغيرها من الأمم الراقية لا تنزله إلا منزلة العوام.

قال الصفهاني: لا شيء أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين لرياسة بالعنم فمن الإخلال بها ينتشر الشر وتكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك أن السواس أربعة الأنبياء وحكمتهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والولادة وحكمتهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكمة وحكمتهم على بواطن الخاصة والوعظ وحكمتهم على بواطن العامة وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ تشرح قوم لنزاعمة بالعنم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلها بدعاً استغفروا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم:

فكل قرين إلى شكله ... كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستوراً مسببة وطينوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيها من الشره فبدعوا العلناء وكفروهم اعتصاماً لسلطانهم ومنازعة

لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطّوهم بأخفافهم وأظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام.

أهـ.

ولقد بقي من دروس الوعظ أو القصاصين كماً كانوا يدعون قديماً أثر ضئيل في بعض البلاد الإسلامية ولكن ضررها يربو على نفعها لأن من يتولون أمرها في الأكثر قلماً يدركون مبالغ أقوالهم وتأثيراتهم ومعظمهم ممن تزيوا قبل أن يتحصروا فراحوا على قلّة عندهم وعندهم يدعون إلى الخرافات في الأغلب يستسهلون الكلام في الزهد في الدنيا وذكر فضائل الأيام والمواسم وأكثر خطب الجوع من هذا القبيل أو هي أدهى وأمر. وأما الخاصة الحقيقيون في الأمة فقد اضطرتهم الفوضى في العلم والنظام إلى أن يقبضوا في بيوتهم ويكونوا أحلاسها واقتصروا اليوم في تعليم العامة على من ينودون بهم من أهلهم وأصحابهم وجيرانهم والعشرة تعدي جرائعها.

القيام على تعليم العامة عندنا ليس بالأمر الحديث كماً هو في الغرب ولكن أصوله بنيت بين أظهرنا ونمت أي نمو عندهم شأن الأمم الراقية والنازلة هذه يمسح فيها كل شيء حتى جمال وجوه أهلها وتلك يرتقي فيها كل شيء حتى موبقاتها وشرورها. ولا نقصد بتعليم العامة أن نعلمهم ما يصددهم عما هم بسبيلهم من أمور المعاش ولكننا نقصد أن يعلموا كعامة أبناء اليابان القواعد الأساسية القليلة ليستحيل بعدها التلاعب بأهوائهم ويكونوا عوناً للخاصة في كل عمل نافع لا عثرة في سبيل كل مشروع ينهضون بلا سبب معقول ويسكنون كذلك.

نريد أن يعلم العامة القراءة والكتابة البسيطة ومبادئ التاريخ والجغرافيا والحساب والاقتصاد والصحة وتدبير المنزل وشيئاً من آداب الدين التي لا تعلم عن أفهامهم وعندما يشاركون الخاصة في الفهم إن لم يكن في معظم مسائل الوجود.

ففي بعضها وهناك من الفائدة للخاصة ما لا ينكره عاقل ويكفي أهم لا يعدون غرباء كأهم من عالم آخر إذا نزلوا بين قوم في الأرياف والقرى والدساكر إذ يجدون فيها من يزيل عنهم موجبات الوحشة ويقدرهم قدرهم في الجنة. هذه الطبقة من العامة إذا كثرت في الشرق العربي مثلاً تكون حاله أحسن مما هي عليه بما لا يقاس ويقل تهرم المتعنين النورين من عشرة الأميين العاميين ولاسيما في المدن الصغرى حيث لا عقل يفكر إلا في الأمور البسيطة من المعاش وقل من يشارك في الشؤون العامة.

قال الجاحظ تقول العرب: لولا الوثام لهنك الأنام وقال بعضهم في تأويل ذلك لولا أن بعض الناس إذا رأى صاحبه قد صنع خيراً فتشبه به لهنك الناس وقال الآخرون إنما ذهب إلى أنس بعض الناس ببعض كأنه قال إنما يتعاضون على مقادير الأنس الذي بينهم ولو عنتهم الوحشة عنتهم الهنكة.

وإذا لم يتيسر لبلاذنا الآن أن نؤسس لها مجامع ومدارس لهذا الضرب من التعليم فما أحرى كل من رزق علماً خرج به عن العامية أن يجمع حوله طائفة من أهله وجيرانه يرشدهم وينقثهم بحسب ما يعرف ويصحح لهم أفكارهم إلقاءً ويعلمهم ما لم يسعدهم الحظ بتعليمه في كتاب. ولا أعلم في بلادنا أحداً يهتم لتعليم العامة وتصحيح الأفكار مثل الشيخ طاهر الجزائري على اتساع مادته في العلوم المختلفة اتساعاً لم أره في عالم عربي وقد انتبه بعض علماء فارس لهذه النقطة فأخذوا ولاسيما في العهد الأخير

يخدمون العامة بما ينفعهم ويطبقون لهم المدنية على حسب عقولهم وهم هناك بضعة عشر رجلاً ورأسهم اجتهد السيد جمال الدين فقد قرأت له خطباً في هذا الموضوع لا تقل في جودتها عن خطب أرنست لافيس وجبرائيل سيائل وغيرهما من فلاسفة فرنسا المعاصرين ممن لا يرون حطة في أقدارهم أن يتزلوا لتعليم العامة لا اعتبارهم إياهم عند أخبية المجتمع وقواعد بنيان بني الإنسان.

إن يوماً نرى فيه هذه البلاد مملوءة بخزائن كتب يختلف إليها العامة فيتناولون فيها ما شاؤوا من المطبوعات والأسفار البسيطة النافعة ومدارس ليلية أو لهارية ابتدائية لتعليم الكبار والصغار والبنات والصبيان ومعارض ومتاحف في كل مديرية أو متصرفية أو عنالة لحو يوم سعيد يسوع بعدها لأمتنا أن تدعي أنها راقية تستحق استقلالها في سياستها إذ حررت العقول من ظلماتها.

الرياضة المعقولة

قل استعمال الألعاب الرياضية في هذه البلاد لأن الفقير لا يقدر فوائدها قدرها ويروض جسده من حيث لا يشعر بأعماله اليدوية وحركاته اليومية أما الغني فيرى في الأكثر أن اللعب لترويض الجسم منقصة وسية لا ينطبق مع الوقار والرزانة. ولما كان أجدادنا ينصرفون إلى الألعاب المختلفة آونات فراغهم كانت أجسامهم أصح وأمراضهم أقل. دام ذلك إلى عهد قريب وضعفت الألعاب الرياضية بيننا بضعف العلوم ويدل ذلك على عناية قومنا بالرياضة قديماً أهم أفردوها بالتأليف وعددوا ضرورها وأسا إليها.

ولقد كان صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكي إذا استراحا قليلاً من جهاد الصليبيين يصرفون شطراً من أوقاتهم في ركوب الجياد والسباق في سهل النوان بظاهر دمشق ولا يريان ذلك نكيراً. ولما أنكر أحد عناء ذلك العصر عني أحدهما ما يأتيه من هذه المسنيات المضیعة للأوقات قال له: إننا نستعين على تقوية أجسامنا لنلا نضعف عن التزال ومقارعة الأبطال. ولم يزل في بعض بلاد الشام أثر من آثار هذه الألعاب بين أبناء الطبقة المتوسطة والدنيا ومن أهمها ركوب الجياد للسباق والركض والوثب والسباحة ولعب العصا والصراع كما ترى منها بعض الشيء في هذا القطر.

بيد أن الغربيين سبقونا أشواطاً إلى كل محمدة ومن جملة ما يمتاز به خاصتهم وعامتهم عن خاصتنا وعامتنا الألعاب الرياضية يأتونها كأنها من الضروريات كالأكل والشرب والنوم حتى قال بعضهم أن عني نسبة ارتقاء الألعاب الرياضية في أمة تقوي أجسامها وتطول أعمارها وتصح عقولها والعقل السليم في الجسم السليم. أدركوا أن غاية الحركات الطبيعية بث القوة في عامة الجسم لا جعلها قاصرة على بعض الأعضاء فانبساط القلب المفرط ينشأ من الإفراط في إتهاك أحد الأعصاب بالعمل وإفناء قوى بعض الحواس. فترى الجبار من اعتاد رفع الأثقال قوي العضلات ولكنه ضعيف الساقين إذا أريد عني الجري انقطع نفسه وخانته رجلاه ولئن كانت أعضاؤه متينة فآلته التنفسية سيئة السير ولا يعالج هذا النقص إلا بتدريبات منظمة حتى أن المصارع نفسه ليحتاج إلى الرشاقة في حركاته إذا عرض له أوتوموبيل في سكرته أو حريق في داره ليتأني له أن يقفز ويصعد الدرج ويزحل على الحبل. أما عامة الناس فهم كلما استحسنت قوتهم وزادت خفة أجسامهم يستعدون لتسلق الجبال وحمل الأحمال

والقفز والسباق. وهذا الميل إلى كل ضرب من ضروب الرياضة وإن أريد به التسلي فهو من الضروريات لقوام البنية حتى يكون من الناس كمن يقول الفيلسوف هيربرت سبنسر (حيوانات صالحة) أي أناس لهم في تراكيبهم الطبيعية ومن أعصابهم وحواسهم الباطنية ما يؤهلهم للقيام بما في طاقتهم بدون أن ينقص عضو من عضو شيئاً أو يقوى عصب بضعف أخيه. ولذلك كثرت أساليب الرياضة وكنها تدور على قوانين طبيعية مبنية على علم التشريح والحياة والميكانيك. ومن قام يدعو إلى طريقته في الرياضة رجل من أهل السويد اسمه لنج نظر في الطرق المتبعة في التريض فخالف المتبع منها في التربية الطبيعية التي من شأنها إعداد أناس منبسطة قلوبهم فاستعاض عنها كان أهل الرياضات يستعملونه من قبل بالتجارب من الألعاب بأساليب له معقولة معتقداً أن أحسن رياضة لتحسين الجنس الإنساني في مجموعه تقليل أسباب الضعف وتقوية الأبدان تقوية تامة. تعلم هذا الرجل التعليم العالي وانصرف إلى اللاهوت والأدب لأول أمره فصنف فيها وألف فشغله ما هو فيه من الأشغال العقلية عن النظر في الألعاب الرياضية إلى أن التقى بمهاجرين فرنسيين في كورنهام أوائل القرن الماضي فعلمه المسابقة لعب السيف والتروس فظهر فيها حتى عين معيّناً لحمل السلاح في كنية لوند وكان حاد الفكر والتصور صعب المراس لا يقف في أمر يتعاطاه عند حد المتوسط فاهتدى بذكائه إلى أن وراء المسابقة وإحسان الكر والفر مقصداً أسمى فأخذ نفسه بدرس منافع هذا الفن ونظر في التشريح وعلم النفس وتوغل في التاريخ فرأى أن السكنديناويين كانوا يستعملون الرياضة واليونان من قبلهم كذلك وتبين له أن ما هو ماثل في مصانع اليونان ومثاليهم من جمال الوجوه وتناسب الأعضاء وصحة الجسوم

إنما كان بفضل الرياضات التي يرتادونها وثبت له أن تحسين النسل وجماله وجودة الصحة الطبيعية والأخلاقية تنشأ من استعمال الرياضة المعقولة.

قام هذا الخاطر في ذهنه ولم يرتح وجدانه إلا عند ما تعدم إلى حكومة السويد أن تمنحه شيئاً من المال يستعين به على نشر طريقته فردته رداً غير جميل وعدته مخزقاً أخرق فسخط من ذلك وهو غضوب عبوس إلا أنه لم يأس. وكان نجاحه في ثباته على المطالبة فصدر الأمر المئوكي سنة 1813 بإنشاء مجمع عني للألعاب الرياضية في استوكهولم عهد إليه إدارته ووفق إلى تحقيق الأفكار التي كانت تحايج صدره وإن كانت تلك الأفكار مشوشة مرتبكة لأول أمرها إلا أن العمل يجنيها والبحث يهذب أصولها وفروعها وساعده على نيته ما تم للنعم من الاكتشافات الحديثة وزيادة انتشار فن الطب ومعرفة ما بين أعضاء الجسم من الصلات.

أما طريقته فهي في الحقيقة مجموع أعمال صحية غايتها تقوية الأعصاب وأن يقاوم المرء المؤثرات المضرة ويستعد لدفع الأخطار التي تحيق به. وبفضل الجهاد الذي جاهده لئلا في أعماله زاد في مدة نصف قرن معدل قامات الجنود في تلك البلاد ثلاثة سانشات وطالت الأعمار فصار معدل الزيادة تسع سنين عن ذي قبل. ولما بت ذلك بالبرهان والإحصاء أرادت بعض دول الغرب أن تجري على طريقة السويديين فأدخنت طريقة لئلا إلى المدارس الجامعة وثكن الجند ولكن العنصر اللاتيني لم يفتح كثيراً في الجري على تلك الخطة لأن أهل شمالي أوروبا أرقى منه في معنى التوفر على الواجب والمبالغة في الخضوع لضروب السخرة الممننة فلا يتبرمون من تكرار حركات واحدة وحضور جلسات طويلة على نمط واحد كما يتبرم أهل العنصر اللاتيني.

وبعد فإن من فوائد السباق وفضائله في التربية أنه يضطر صاحبه إلى تعلم النظام ويعدّه للقيام بالفروض الجندية ولذلك ترى الجدافين في القوارب وهم مضطرون إلى تطبيق حركاتهم بعضهم على بعض وأن يسيروا بنظام تام يأتون في ذلك مثلاً من أمثلة النظام والتكافل وكذلك الحال في لاعبي الكرة بخضوعهم لأمر زعيمهم. هذه الألعاب أحسن مدرسة للنشيان كل يوم لأنها لا تبقي عضلة لا تتحرك في خلالها وتشير الحركات التنفسية مع رفع الأعضاء وبذلك يقوى الصدر وتكبر رفقته وتحسن ضربات القلب وتتصنّب الأعصاب وتقرن المفاصل.

ولكن هذه الطريقة في الألعاب على ما هي عليه من النفع بحيث جرى العمل بها في الشكّن والمدارس يصعب أن يجري عليها من يتعلّمونها بعد لأن الشكنة أو المدرسة إذا خصّصت للجندي والتنفيذ ساعة كل يوم للرياضة فمن الصعب على من يدخل في مدرسة هذا العالم أن يصرف هذا القدر من وقته كل يوم. بيد أن القوم اخترعوا صوراً من الألعاب لا يحتاج معها المرء إلى شيء من الأدوات ولا تأخذ له من الوقت أكثر من عشر إلى خمس عشرة دقيقة.

وقد كثر تحدث الناس في إسكاندينافيا مهد طريقة لنج بطريقة اخترعها مولر الدانيسركي وما وفق إلى إتقانه في كل فرع من فروع الألعاب وهذا الرجل يحسن تعاطي الجحاف والسياحة والترحلق والصراع والمشي وحمل الأثقال والقفز والملاكمة والسير السريع وقد نال في ذلك 123 جائزة حتى قال فيه أحد المصورين: إنك يا هذا أجمل مخلوق رأيته في حياتي. بل أنه كتب مؤخراً أنه سيزيد نفسه جمالاً ورقة مع أنه الآن في الأربعين من سنه. وتاريخ هذا الرجل غريب في بابه وذلك أن أباه كان

محتل الصحة مبتنى بعدة أمراض وهو كان في صغره كثير الأمراض أيضاً وقد قال عن نفسه: إني لما ولدتني أمي لم يكن وزني أكثر من ثلاث ليرات ونصف بحيث كانت عتبة لغائف تسعني وفي السنة الثانية أصبت بزحير كدت أهلك عقيبه كما أصبت في تلك السن بجميع أمراض الأطفال. ولما دخلت المدرسة أصبحت أمرض كل سنة مرتين أو ثلاثاً بالحنى والبرداء والإسهال وغيرها فأنت ترى أن مالي من الصحة والقوة الآن لم أرثهما وأني لم أكن من أهل العافية والسلامة في طفولتي.

ففي سنة 1874 وكان عمره إذ ذاك ثلثي سنين وقعت إليه كتب بالألعاب الرياضية مترجمة من الإنكليزية والألمانية ولما قرأها ريت فيه ذوق التبرينات الطبيعية وأخذ يتحضر لها وترك دروس اللاهوت التي كان أخذ بدراستها لأول أمره وتعلم الهندسة العسكرية صم صار مهندساً منكباً وبعد أن قضى عشر سنين في هذه الصناعة عين مديراً لمصح في جوتلاند شبه جزيرة دانيمركية وهناك نشر كتاباً في الألعاب الرياضية سماه طريقتي انتشر انتشاراً غريباً فطبع منه في 3 أغسطس سنة 1904 إلى شهر مايو من السنة التالية ثلاثون ألف نسخة هذا وسكان الدانيمرك نحو مليونين ونصف فقط. وترجم إلى الألمانية فطبع منه 70 ألفاً وإلى الإنكليزية فطبع منه 25 ألفاً وإلى السويدية 20 ألفاً وإلى الفرنسية 20 ألفاً. ولئن كان لنشر هذا الكتاب يد في النفس بالإعلان عنه فإن سهولة طريقته كانت أعظم سبب لانتشاره إذ ليس فيها قيود ولا تعقيد بل أن الربع ساعة يقضيها المراتض في غسل جسده ومحن جنده (دعكه) وتغيير بدنه تكفي فيمنحن جسده وهو يستلقي على قفاه ويتلوى ويتوتر ويتثنى بحيث لا ينتهي من اغتساله إلا وقد تحركت جميع أعضائه وأعصابه ويكون قد نظف جسده وبشرته.

وهذه الطريقة نافعة أكثر من غيرها من الألعاب الرياضية لأنها تجعل تنعيم البشرة وغسلها من الأعمال الرئيسية وتلين أعصاب البطن وتجعل لتفيس الجند شيئاً عظيماً وقد كتب مولر إني ضحكت من أناس في أرباب المسابقات والصراع يعتقدون بأن أجسامهم لا ترشح عرقاً عندما يتعاطون أعمالهم مع أي موقف بأن مسام أجسامهم متسخة بالأدران والأدهان البشرية وصفرة وجوههم واكسداد ألوانهم أكبر دليل على سوء صحتهم. وقد علق مولر على ترويض البطن شيئاً كبيراً في تحسين الهضم والعون على انتظام وظائف الأحشاء وتحسين حالة الكلى والكبد.

وسواء شاعت طريقة لنح أو طريقة مولر أو طريقة الجيوحيستو اليابانية في الألعاب الرياضية فإن ما يهم في هذا الباب انتشار الرياضة البدنية بين جميع الطبقات لا أن تبقى محصورة في طبقة خاصة فيجب أن يتعلم الطفل اعتياد العناية بجسده وغسله وتقويته ومحمته وأن يواظب على ذلك ما دام حياً. ومن أجل هذا تجد الحكومات الأوروبية تنشط جمعيات الألعاب الرياضية. وقد كتب وزير حربية فرنسا إلى جمعية اتحاد الألعاب الرياضية في العهد الأخير يقول: يجب أن لا تبقى بعد الآن غير طريقة واحدة في التعليم الطبيعي تستعمل في الثلاثة أدوار من أدوار التربية الوطنية وهي المدرسة والجندي وهذه الطريقة هي كبر الصدر وسلامة الرئتين والقلب وتقوية الساقين طريقة تحسن جسم المرء أدبياً وصحياً وتعدده كأحسن الناس للحياة والعمل والقتال إذا اقتضت الحال.

رب إسرائيل في جزيرة أسوان

جزيرة أسوان هي أول الجزر العظيمة الواقعة في مصب الشلال وتدعى أيضاً الجزيرة وكانت قديماً مأهولة بجماعة من النوبيين وهي عبارة عن قريتين تابعتين لأسوان وتعد عاصمة نخوت (التخوم) ومدينة (أبو) أو (كوهو) العظمي قال لاروس في معجمه الأوسط: وكان أمراءها نحو آخر السلالة الخامسة أو السادسة يغزون الصحاري الجاورة أو شواطئ البحر الأحمر ويتجرون معها وكانت منوك السلالات المنفية تترلفا عندما تريد الإشراف على أحوال التخوم واستعمر سكان هذه الجزيرة بلاد النوبة الشمالية بين السلالة السادسة والحادية عشرة. ولقد ضعفت مكانتها عندما توسعت في التخوم نحو الجنوب على عهد منوك الشيبين وأصبحت مدينة يرحل إليها للتجارة والزيارة ولما جاء المصريون إلى جوار الشلال عندما انفصلت الحبشة عنهم في الدولة الثانية عشرة استعادت مركزها الحربي إلا أن ارتقاء أسوان المعدودة من جملة أحيائها على الحدود بين الحبشة ومصر على عهد الدولة الفارسية ثم على عهد الدولة اليونانية قد أضمر ضرراً بنيغاً بحالتها كما سقطت على عهد الرومان ولم تكن على عهد الفتح البيزنطي والعربي غير أنقاض وقد بقي من المعبد الكبير قطعة من بابيه أنشأها توتنوسيس الثاني وجددت على عهد الإسكندر الثاني ولا يرى من عادياتها إلا صخور مشتهة بين خرائب المدينة أو مسدودة بالرصيف القديم ومقياس النيل الذي جدد على عهد القياصرة وعني بأمره أحد علماء الفنك من العرب محمود باشا الفنكي سنة 1870 وقال بوليه في معجمه التاريخي والجغرافي أنه كان في جزيرة أسوان قديماً معبدان جميلان يرد عهدهما إلى زمن أماناهوبتو الثالث وقد خربا سنة 1818 لتبني بأنقاضهما ثكن في أسوان.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان وأسوان بالضم ثم بالسكون وواو وألف ووجدته بخط أبي سعيد السكري بغير الهزة وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه وهي في الإقليم الثاني طولها سبع وخمسون درجة وعرضها اثنان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة وفي جبالها مقطع العبد التي بالاسكندرية. قال أبو بكر الهروي وبأسوان الجنادل ورأيت بها آثار مقاطع العبد في جبل أسوان وهي حجارة مائة ورأيت هناك عموداً قريباً من قرية يقال لها بلاق أو براق يسوقها الصقاله وهو مائع مجزع بحجرة ورأسه قد غطاه الرمل فذرعت ما ظهر منه فكان خمسة وعشرين ذراعاً وهو مربع كل وجه منه سبعة أذرع وفي النيل هناك موضع ضيق ذكر أنهم أرادوا أن يعينوا جسراً على ذلك الموضع. وذكر آخرون أنه أخو عمود السواري الذي بالاسكندرية وأشار ياقوت إلى ما بأسوان من التور المختلطة وأنواع الأراطاب وقد ذكرها البحري في مدحه خمارويه ابن طولون بقوله:

هل ينقبي إلى رباغ أبي الجي ... ش حطار التغوير أو غوره

وبين أسوان والعرا ... ق رعية ما يغيبها نظره

ونسب إلى أسوان قوم من العنساء وقال المقريزي في الخطط ما يقرب من هذا القول في أسوان وبتطويل أكثر. هذه هي أسوان وقد قرأنا في جريدة الطان لنسيو كنرمون كانوا من أعظم عنساء الآثار الشرقية في الغرب فضلاً وصف فيه ما عثر عنده من آثار تلك الجزيرة الأثرية فأبنا تعريه مع مراعاة الأصل قال: إن مجموع الاكتشافات الحديثة التي ظفروا بها في هذه الجزيرة قد وقعت بين العنساء أعظم موقع وهي قم تاريخ التوراة في الغاية. هذه الاكتشافات اليهودية لم يعثر عليها في طور سيناء مهد

اليهودية ولا في القدس مقرها بل عثر عليها فينا وراء ذلك من البلاد على تخوم مصر والنوبة على بضع دقائق من دائرة الانقلاب في جزيرة لنشلال الأول على النيل في مكان لم يكن يتوقع أن يرى فيه رب إسرائيل يهود بعيداً إلى هذا الحد ويرد عهده إلى خمسة قرون قبل المسيح. وقد قام يقول لنا بنسان من يتبعون به ممن رافقوه إلى تلك البلاد من أبناء إسرائيل أموراً جديدة ربما تغير بها تفسير الكتاب المقدس وبذلك صح لنا أن نقول أن النور جاءنا من الجنوب اليوم ولم يكن ينتظر أن يجئنا بعد منه شيء.

ومعنوم أن بلاد الفراعنة ما زالت قديماً وحديثاً مخصبة بضروب الاكتشافات الأثرية فهي البلاد التي أزهز فيها ورق البردي فكانت ميداناً مباركاً لعلم الآثار آتانا ولم يروح يأتينا بكتابات قديمة خطت على هذه المدارج الرقيقة من ضروب الكتابات المصرية واليونانية واللاتينية والقبطية والعربية وغيرها فكان لنا منها كنوز أدبية حقيقية في صورة أوراق من البردي ولنا منها كل يوم قطعة جديدة ومادة ندهش بها ونسر. فبالأمس اكتشفت قطع من روايات مينندر الشاعر الهزلي ففرح بها أهل الأدب. وقبلها بقليل كان اكتشاف آثار لنسح تصل بنا إلى أصول النصرانية وما يدرينا ماذا خبأت لنا مصر غداً من الآثار ولعل اكتشاف اليوم سيكون تورا أقدم من التورا المعهودة وإن ما اكتشف حتى الآن ليدعو إلى الأمل في ذلك.

ولكي نمثل للأنظار طبيعة الصكوك اليهودية وخطارتها التي ظهرت للنوجود في أسوان نقضي الحال بأن نرجع قليلاً إلى البحث في المسألة من أصلها. فقد كانت مصر عجيبة بما اكتشف فيها من أوراق البردي التي كتبت عليها لهجات أجناس من البشر مختلفة كثيرة ممن تعاقبوا احتلالها فينا سنف إلا أنها ضنت إلى اليوم كل الضمانة بإخراج

كتابات باللغات السامية القديمة النهم إلا بضعة عشر قطعة من البردي كتبت بحروف آرامية عشر عندها منذ نحو ثلاثين سنة. ولئن اختلف علماء المشرقيات في أمر هذه الكتابات لصعوبة حلها فالرأي اجمع عنده يكاد يكون متفقاً على أمر واحد وهو أن تلك الأوراق هي من عهد البطالسة اليونان كما هو الحال في بعض النقوشات على الخرف والمزبورات على الحجر المخطوطة بنقطة وحرف مشابه لها مما عشر عنده حتى الآن في مصر.

وإذا سمح لي الزمن منذ سنين بالتوفر على البحث في هذا الموضوع تبين لي حل آخر يخالف رأيي غيري واستندت على أمور مختلفة استنتجت منها بأن جميع هذه الصكوك الآرامية يجب الرجوع لها إلى أقدم مما قدر لها من العمر أي إلى عهد الفرس الحجابيين وعهد دارا وكسر كس وأرتاكسر كس.

وإذا صح أن الأمر كذلك فيكون منها أثر تاريخي لأنها لم تقف عند إبدال شيء من التاريخ بل يكون منها تغيير تام في اخطط السياسي والديني. تبين لي هذا الرأي المخالف للآراء كلها من تأويل إحدى قطع تلك الأوراق من البردي المكتوبة بالآرامية المعرفة ببردي تورين فقد قرأت فيها رأس محضر رسمي أرسل إلى أحد المرازبة في مصر وعنده اسم ميتراوهيشت وهو اسم آرامي لا محالة. ورأيت تناسباً في التعبير المستعمل بين هذا المعروض وبين الذي أرسله إلى الملك أرتاكسر كس حاكم بلاد السامرة بشأن منع إعادة بناء معبد القدس الذي شرع فيه اليهود ثم تم على يد نحيانيا وهو المعروض الذي حفظ بنصه الآرامي في كتاب أسترادس المتعلق بالتوراة. وظاهر أن هذا الاستنتاج التاريخي يتناول مجموع النصوص الأخرى المتأثلة لها التي صدرت في تلك

البلاد ولم تنبث أن تحقق أمرها بما فيها لها من الاكتشافات المتعاقبة في مصر وغير ذلك من الكتابات والرقوق

الأرامية التي كتب عليها التاريخ بحروف جنية من عهد كسر كس ودارا وأرتا كسر كس فثبت ما قلناه بالبرهان.

ومن جملة أوراق البردي المكتشفة مؤخراً ورقة ذكرت فيها بعض الحوادث التي حدثت سنة أربع عشرة لعهد الملك دارا الثاني الموافقة لسنة 411 قبل التاريخ المسيحي وقد غلط المسير أوتج أحد علماء الألمان الذي عهد إليه نشر هذه الأوراق في قراءة عدة فقرات منها وإذا أخذت أنظر فيها بعده تبين لي أنها عبارة عن شكوى عامة أو معروض عام أرسله إلى الموزيان في مصر جماعة من غير المصريين وربما كانوا من اليهود لإقامة الحججة على اعتداء مدرسة الكهنة المصريين وعبثهم بقبور الرب خنوم في جزيرة أسوان وبذلك عرفت هذه الجزيرة بأنها مركز سامي آرامي جليئة القدر جداً من العهد الفارسي لاسيما وقد أسعد الحظ باكتشاف صكوك مماثلة لها. وقد أرادت الحكمة إذ ذاك عني المبادرة في الحفر والبحث في تلك الرجاء التي هي كالمعدن المسنوء بالخيرات ولكني كنت كمن يعظ في قفر أو يصرخ في واد. وما جاء ربيع سنة 1904 حتى تبين لي لم أكن ضالاً فيما دعيت إليه فعثر بالعرض بعض الوطنيين ممن كانوا يحفرون في خرائب أسوان في تربة نشادرية يستعملونها سياحاً ويستعملونها في تسديد الزرع عني نحو عشر قطع من أوراق البردي مطوية محتومة فابتاعها في الحال المسير موند واللا دي وبنيام سيسيل وكانا إذا ذاك في مصر وبعد مدة نشرها المستر كوفي في كنية أكسفورد. وكان فيها نصوص سالمة عظيمة بحروف

آرامية لطيفة تشبه القطع المعروفة حتى الآن من كل وجه وكنها بلا شك من صنع اليهود النازلين في جزيرة أسوان ومدينة أسوان الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل أمام الجزيرة. لا جرم أن هذا الحادث مهم في ذاته ولكنه ليس مما يدهشنا لأننا نعرف بأن اليهود في سفر الخروج تركوا لغتهم العبرانية القديمة الوطنية وتعلموا اللغة الآرامية وكتابتها وكانت هذه اللغة شائعة في مديريات المنكة الفارسية. كما ترك اليهود أموراً كثيرة أخرى ليس هذا محل ذكرها.

هذه الخطوط المكتوبة على البردي هي حجاج حقيقية مسجدة غربية للغاية يرد عهدنا بالتدقيق إلى كسر كس وأرتا كسر كس ودارا بالسنين والشهور والأيام مع بيان موافقة حساب السنين الآرامية والمصرية وهي مرتبة على ستين سنة مضت بين سنة 470 إلى سنة 410 قبل المسيح وقد دونت بطنب الأحزاب بمعرفة أبحار اليهود ووقع عليها توقيعات حجة للتصديق عليها بشهادة كثيرين وهي تدور على مسائل كثيرة في التعامل كالبيع والشراء والمبة في العقارات والأراضي ومسائل الأسواق والأحكام وحل الاختلافات أمام الخاكم أو على طريقة ودية وعقود زواج ونظر في مسائل الطلاق مع خلاصتها الشرعية سواء كان للمتزوجين أولادها أو لا ووصف من أدق ما يكون وأفيد لجهاز المتزوجين وتقدير أثمانه قطعة قطعة والموارث وقسمة العبيد المنتقنين بالإرث إلى غير ذلك.

وبعد فإن مجموع هذه المستندات المنقطعة القرن التي ظهرت سالمة في بعض دفاتر بعض البيوت قد أتتنا بجملة من الفوائد هي غاية في مكانتها وذلك لأنها دللتنا على وجود شعب عظيم من الإسرائيليين في أسوان قبل المسيح بخمسة قرون وعرفنا بلغته

وكتابتة وأخلاقه وأوضاعه ومعتقداته وصلاته مع الحكومة الفارسية والشعب المصري وغير ذلك. ومن جملة المسائل التي تنحل بواسطة هذه الأوراق أو توضع موضع البحث مسألة دوفنا كل المسائل ألبا وهي التي لها علاقة برب إسرائيل وما له في تلك البلاد من الشأن. فقد رأينا اسمه مذكوراً فيها عدة مرات بدون حرج كما صار ذكره بعد. فكان القوم هناك يقسمون برب إسرائيل كما يقسم

بالأرياب المصرية (كانت ساني ربة جزيرة أسوان) عندما يراد التقسيم ثم أنهم لم يبالوا بالخطر التقنيدي عندهم وأنشؤا في ذاك الرجا البعيد معبداً لرب إسرائيل غير مباليين أن ينافس معبد القدس وليس المعبد الذي أقاموه عبارة عن كنيس بسيط أو مصنئ صغير بل هو معبد حقيقي مستوفٍ لشروط وفيه مذبح تراق فيه دماء الضحايا ويصعد منه دخان البخور كأن اليهود إذ ذاك في هاتيك الجزيرة هم في عهد عزهم واسعد أيامهم كما كانوا في صهيون.

أصغت الحكومة الفرنسية لطني وأرسلت بعثة عننية تحت رئاستي إلى أسوان في السنة الماضية للبحث عن حارة اليهود فيها أو لتحديد موقع معبد رب إسرائيل إن أمكن وكانت هذه المسألة من أعقد المسائل لأن معرفة موقع المعبد كانت معنقة على معرفة ما إذا كان موجوداً في مدينة أسوان المنفصلة عن الجزيرة بذراع من النيل أو على العكس كما كنت أظنه في الجزيرة نفسها. وأنا أقطع مذ الآن أن المسألة مبتوتة في هذا الشأن.

ولقد دامت الحفريات أربعة أشهر يعاونني فيها أخص تلاميذي وأقدمهم المسير كنيدا فقاسينا في عمننا عرق القرية وكانت أعمالنا لأول عهدنا تدعو إلى اليأس ولاسيما

فيما يتعلق بغايي الخاصة. وذلك أنما وصلنا الجزيرة رأينا بعثة ألمانية قد سبقتنا إليها منذ سنة واختصت دوننا بطبيعة الحال بالموقع الحسن لإجراء الحفر واختارت أقدم بقعة يرجح أن يكون فيها خير كثير ويسهل على المعاول أن تحفر فيها.

فاكتفينا بما أغفنته تلك البعثة من الأراضي وأخذنا نحيل فيها قداح أنظارنا ونضرب فيها معاول عمالنا ولم يأتنا الحفر مدة شهرين بغير بعض الآثار المصرية واليونانية ولكنها كانت بكثرة ونادرة بنوعها ومنها عدة مسلات فرعونية وقشالان جيلان لتوتمس الثالث مصنوعة من حجر الكرانيت الأسود ولاسيما قبر الرب خنوم أو شوب أكبر أرباب أسوان وهو الذي لم يكن على اتفاق مع اليهود الذين وقعوا على الشكوى المذكورة آنفاً. وعثرنا على قاعدة تحت الأرض لم تمس بأذى تحتوي على نواويس من الكرانيت والحجر الرملي جعلت عليها أغطية مذهبة وجمت بأجل زينة من الصور والنقوش وهناك خمسة عشر كيشاً محطاً مقدمة لنور أبيس على نحو ما اكتشف مثلاً من ذلك قديماً ماريت الفرنسي في مدينة منفيس.

كل هذا حسن ونافع في ذاته ولكنه لم يقف دونه غرضي. لأنني لم أتحمل مشقة السفر إلى أسوان للبحث عن العاديات المصرية بل للبحث عن الآثار اليهودية. وبعد أن كدنا نصل إلى آخريات وقت بعثتنا عثرنا بعد الجهد الجهد على حارة اليهود الآرامية وظفروا بكسبة من النقوش المزبورة على الفخار مغشاة بكتابات آرامية يهودية. وقد كتب معظمها في وجهين. وهذه الكتابات النادرة على كثرة الحرق فيها قد أطلعنا على جزء من المراسلات الودية اليومية التي جرت بين يهود جزيرة أسوان وأخوانهم يهود مدينة أسوان وقد كتبت في زمن واحد هي وأوراق البردي الأنف بيانها وبخط

واحد ولغة واحدة حتى أن جملة الموقعين عليها نفس الأشخاص الذين عرفناهم بتلك الأوراق البردية، وذكر فيها اسم رب إسرائيل بصورة من الإملاء خاصة لم تكن تعهد. ولا شك أنه متى تمت قراءة هذه الآثار الفخارية نطلع على أمور جديدة بالنظر وكبيرة الخطر والقيمة.

وقد كان داهنا الحر بحينه ورجله فأوقفت العمل في شهر أبريل وسعدوه بعد أسابيع بفضل ما جاد به الخبص العنسي ووزارة المعارف من المال وما مد به يده من المساعدة رصيفي المسير آدمون روتشيد وإني عنى ثقة من أننا نوفق هذه المرة إلى الظفر بموقع معبد رب إسرائيل وقد اكتشفت البعثة الألمانية التي كانت تعمل بالقرب منا برئاسة المسير روبنسون أوراقاً من البردي الآرامية اليهودية ووكل أمر قراءتها للنسيو ساشو من برلين وقد نشر كلامه على ثلاثة منها. وأهمها صك رسمي ذو شأن عظيم يفيد فوائد كثيرة في تاريخ اليهود والتوراة وهذا الصك عبارة عن محضر مؤرخ في اليوم العشرين من شهر مارهزوان من السنة السابعة عشرة لحكم دارا (408 قبل المسيح) بعث بها إلى السيد ياكوهي وإلى الفرمن في بلاد فلسطين أرسلها إليها يدونا ووصفاؤه من كهنة أسوان باسم جميع تلك المدينة من اليهود ولقد أتى الموقعون على ذلك أخضر بعبارات تكاد تكون بمعناها مشاككة لما في ورقة البردي المعروفة باسم تورين وكنها دائرة على الدعاء له بأن يمنحه رب إسرائيل بركاته ودعاء له أن يحفظ عليه رخصاً دارا مولاه ورضى الآل الملوكي وقد ذكروا له أن الكهنة المصريين لنسعود خنوم في أسوان قد كادوا لهم مكيدة عندما تغيب مرزبانهم في مصر المدعو أرسام الذي كان قصد الملك بدعوة منه وتربصوا بهم الدوائر عند واليها المدعو ويدانج الذي رشوه بالمال

فحصلوا منه على أمر يوعز إلى قائد أسوان العسكري أن يذهب لتخريب معبد رب إسرائيل في جزيرة أسوان قائدين أن هذا المعبد كان أنشئ قديماً على يد آبائهم وكان موجوداً قبل أن يفتح كنيس مصر فلم ير بداً من احترامه على حين خرب سائر معابد المصريين ويفهم من ذلك ضمناً أن المعبد كان بناءً هتلاً مبنياً بالحجر النحيت وهو ذو سبعة أبواب أثرية وعند من الحجارة وسقف من خشب الأرز. وقد نفذ أمر الوالي ويدرانج بلا شفقة في الحال وأعان الجند جمهور من المصريين فحربوا المعبد المقدس وحرقوا ما فيه وحطموه ونهبوا الأواني الذهبية والفضية وسائر الأعلاق النفيسة. فعم الحزن سكان أسوان بأسرهم رجالهم ونسائهم وأولادهم من أجل خراب معبدهم وليسوا الحداد وأخذوا يتحبون بكاءً وصاموا وضرعوا إلى رب إسرائيل أن ينتقم من الظالمين. واضرب القوم عن التزين وتعاطي الخمر فأصبح النساء كالأيامي. وبعد حين نكب الوالي زيدرانج وجاد بنفسه مضطراً وهناك جميع من نفذوا أمره ف يخراب معبد أبناء إسرائيل فكفروا بذلك عما جنت أيديهم بيد أن أصحاب الخضر لم ينالوا إلى ذلك اليوم على كثرة ما بذلوا من المساعي رخصة بإعادة بناء معبدهم بحيث قضوا ثلاث سنين في حزن لأنهم لا يسكنون من تقديم الضحايا الدينية وإيقاد البخور وعرض الذبائح على معبد رب إسرائيل. وعبثاً توسلوا أيام نكبتهم بخراب معبدهم بأكوهي والي بلاد اليهودية ويوهوهان الكاهن الأعظم في القدس وبسائر الكهنة رصفاته وبأخيه أستان أناني وأمراء اليهود في فلسطين فلم يأثم جواب ولذلك وضعوا آثامهم ثانية في بأكوهي أن يرضى عنهم ويجعلهم في حل من إعادة بناء معبدهم في أسوان كما كان من قبل وهم لقاء هذا المعروف الذي يسديهم إياه يقدمون لاسمه الضحايا إلى

رب إسرائيل على المذبح الذي يقيسونه لمسجده وعبادته قالوا وأن جميع يهود أسوان رجالاً ونساءً وأولاداً لا ينفكون يباركون على باكوهي ويدعون له ثم هم زيادة على الضحايا والذبايح يقدمون له دخلاً قدره ألف بدرة من الفضة كل عنك الذهب الذي أخبروه بأنهم سيؤدونه إليه إذا رضي بإجابة طلبهم (ما أقدم البخشيش في الشرق) وذكروا في الختام بأنهم أطلعوا على ذلك كنه كلاً من دلایاح وشلتایاح ابني سانالایات حاكم بلاد السامرة وأن الكاهن أرسام لا يعرف من ذلك شيئاً.

أما الصنك الثاني فيكاد يكون محرقاً كنه ويحتوي مع بعض اختلاف على صورة ثانية من هذا الخضر الذي احتفظ مرسنوه بصورته ومسودته. وفي الصنك الثالث عبارات كثيرة تشير إلى أن يهود أسوان رخص لهم بإعادة معبدهم بفضل توسط باكوهي ودلایاح فأعادوه إلى ما كان عليه وعمره بالعبادة ومما لا شك فيه أن بعض الأوراق التي لم تقرأ قد ذكرت فيها أكلاف المعبد ونفقات بنائه.

وهنا لا أرى بيان فائدة هذه الأوراق وموقعها من نفوس العنساء فقد أحييت في نظرنا رجالاً اشتهر أمرهم في التاريخ وهم من الطراز الأول وذكر فيها اسم يوهوهانان الكاهن الأعظم في بيت المقدس وسانابالات والي السامرة وهما مذكوران في التوراة ووالي اليهودية باكوهي وقد ذكره فلافيوس جوزيف المؤرخ اليهودي باسم محرف عن اليوناني وهو باكواس وهذه الورقة هي صفحة صحيحة من عهد حوادث ينبغي إضافتها إلى سفر نحيشيا. فهل يكون من حظ البعثة الإفريقية أم من حظ البعثة الألمانية يا ترى الظفر هناك بتوراة يرد عهدهما إلى ما قبل المسيح بخمسة قرون في حفرياتنا الجديدة؟.